ليو تولستوى

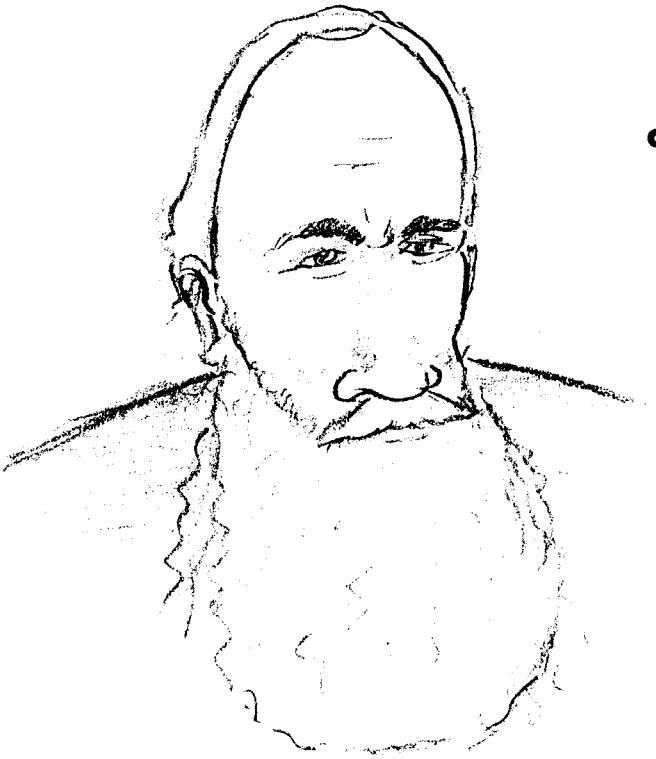

الحـرب .. والسـلام

ليو تولستوى صاحب الروايـة الخـالدة " الحـرب والسـلام " المعروفة والمترجمة بكل لغات العالم فهو روسى الجنسية ولـه آثـار واضحـة فى تاريخ الأدب العالمى.

صراع طويل أخذ جزءا كبيرًا من حياته هو وزوجته " صوفيا أندريانينا " فقد كانت مأسـاة هـذا الصـراع موضوعًـا للدراسـة والبحـث طـوال عشـرات السنين.

بدأت قصة "تولستوى" مع زوجته "صوفيا" بداية سعيدة ، فقد تزوجا بعد قصة حب عنيفة ، كانت هى فى السابعة عشرة من عمرها بينما كان هو فى الرابعة والثلاثين من عمره ، وكان تولستوى وقتها قد وصل إلى درجة عالية من الشهرة والنجاح الأدبى ، وكان يؤمن بالموهبه التى منحها له الله ، ولكنه كان يعلم تمامًا أن الله حرمه من نعمة الجمال والوسامة فكان دميم الوجه بوصف المؤرخين ولكن كان له عقل راجح ، وموهبة فريدة .

وفى شبابه فكر تولستوى فى الانتحار ليتخلص من دمامته ، ولكن نجاحه الأدبى المبكر الذى حققه منذ البداية جعله يحب الحياة، فقد أحاط به المعجبون، بالإضافة إلى أن وضعه المادى كان عظيمًا ، فقد ورث عن أسرته أراض زراعية شاسعة وجعله هذا الثراء من أبناء الطبقة العالية، وكان لهذا الثراء أثره البالغ على تولستوى فقد أعطاه هذا الثراء شعورًا بالقوة والثقة بالنفس.

كان تولستوى يتمتع بذكاء وجاذبية ، مما جعله مع الجميع شخصًا ساحرًا، مما جعل الناس ينسون وجهه القبيح تمامًا ويشعرون أنه أجمل إنسان فى الدنيا.

وهكذا أعجبت "صوفيا" بـ "تولستوى" ، فقد أحبت كل شىء فيه وأصبحت تريد الزواج من هذا العبقرى ذى الشخصية المحبوبة على وجه السرعة .

وبالفعل تم الزواج وعاش الزوجان حياة مليئة بالحب والسعادة الغامرة وانتقلت حياتهما من تألق إلى مزيد من التألق خاصة بعد أن أصبح تولستوى شخصية عالمية ، يقصده الناس للتعلم منه وتفهم أفكاره .

وكانت زوجته صوفيا زوجة مثالية ، وأنجبت له ثلاثة عشر طفلاً ، ومات منهم ثلاثة ، وكان تولستوى يحب الأطفال وكثرة الإنجاب.

كانت صوفيا متعلمة ومثقفة تجيد عدة لغات ، فقد كانت تعرف الفرنسية والألمانية والإيطالية والإنجليزية ، وقد نشرت باسمها بعض الكتب الأدبية ، وبالطبع بعد زواجها من تولستوى استفادت من إمكاناتها الثقافية فى مساعدة زوجها الذى وصفها بأنها " الزوجة المناسبة تمامًا للكاتب ".

وكانت صوفيا تبذل مجهودًا كبيرًا لنسخ وإعداد كتبه للنشر ، وكانت تقدم له ملاحظات مفيدة ودقيقة ساعدته على كتابة رواياته المختلفة.

واستمر هذا الزواج سعيدًا ومُلئ بالتفاهم والتعاون لمدة تقرب من أربعين عامًا ثم جاءت المأساة بعد أن وصل تولستوى إلى السبعين ووصلت زوجته إلى الثالثة والخمسين .

حدث الخلاف عندما تحول فكر تولستوى وعارضته زوجته معارضة عنيفة، أما التحول ، فقد كان تولستوى يريد أن يوزع أملاكه من أراض شاسعة على الفلاحين البسطاء مقابل أقساط سنوية صغيرة وكان يصر على هذه الفكرة فقد كان يحلم بتوزيع ثروته كلها على الفلاحين، لقد كان يرى أن العمل اليدوى أهم شىء له قيمة فى المجتمع.

وبدأ تولستوى يعمل بيديه فكان يصنع الأحذية أحيانًا ويعمل فى الأرض مع الفلاحين ، وقرر بالفعل التنازل عن كل أملاكه للفلاحين ، وهنا عارضته زوجته أشد المعارضة وبدأت تخشى على مستقبل أولادها من

هذا الزوج ، وما أصابه ففى نظرها أنه أراد بهذا العمل تدمير نفسه وأسرته.

ولكن الفكرة سيطرت على تولستوى تمامًا ، وأصبح يحلم أن يعيش حياة البسطاء ويتخلى عن القصور الفخمة ليقيم فى الأكواخ الفقيرة ، وسانده بعض تلاميذه الذين أمنوا بفكرته ، ونقدوا زوجته صوفيا التى أرادت تحويل تفكيره عن هذا المشروع .

بدأت صوفيا تكتب مذكراتها وتتهم زوجها بالجنون ، وتحول بيت تولستوى الهادئ إلى جحيم ، وأخذت الزوجة تقاتل وتهاجم بكل قوتها للمحافظة على ثروة أولادها.

وأمام هذا الصراع العنيف هرب تولستوى من بيته ، وركب قطارًا بدون هدف، وأصر على ركوب القطار فى الدرجة الثالثة المزدحمة وكان قد تجاوز الثمانين من عمره وأصيب بعدها بالتهاب رئوى.

استأجرت زوجته قطارًا خاصًا ولحقت به ، فقد نقله تلميذه الذى كان يرافقه، وطبيبه الذى أصر على البقاء معه إلى مكان متواضع فى إحدى محطات السكة الحديد ، ولحقت به أيضًا ابنته إلكسندرا ، ووصلت الزوجة إلى المكان الذى يرقد فيه زوجها ، وأرادت أن تراه ولكن الجميع بما فيهم ابنتها منعوها من ذلك .

ولم تستطع زوجته رؤيته فى لحظاته الأخيرة فقد توفى تولستوى متأثرًا بالالتهاب الرئوى الذى أصابه ، توفى فى الـ ٨٢ من عمره فى ٢٠ نوفمبر عام ١٩١٠م ، أما زوجته فقد عاشت بعده سنوات طويلة تدافع عن نفسها

بعد اتهامها بأنها كانت مصدرًا للعذاب الكبير الذى تعرض له زوجها العبقرى العظيم "تولستوى".

وهكذا انتهت قصة الحب والزواج بين تولستوى وزوجته صوفيا نهاية حزينة بعد أن كانت البداية مليئة بالبهجة والسعادة والتفاهم والتعاون.

وسبب هذه المأساة أن تولستوى اكتشف أنه لا يستطيع أن يعيش سعيدًا وملايين الناس حوله تعساء فقراء ، أراد أن يسعد الفقراء من حوله ، لكى يعيش هو سعيدًا ، كان يحلم بالعدل وكانت الرحمة تملأ قلبه ، وكان يتمنى أن تشاركه شريكة حياته وحبيبته صوفيا هذا الحلم ، ولكنه صدم برد فعلها ، وتفضيلها المال على سعادته الشخصية .

كان حلمه صعب التحقيق ، وخاصة فى ذلك العصر الذى كان فيه الظلم قويًا يفرض نفسه ، لذلك تعذب تولستوى بحلمه الكبير ، ومات دون أن يرى هذا الحلم يتحقق.

وإذا أردنا أن نلخص قصة حب تولستوى وصوفيا نستطيع أن نقول فى البداية سعادة وفى النهاية عذاب !